التجربة الشعرية الصوفية عند عثمان لوصيف (*)

Sufi Poetic Experience by Othman Loussif

د. قاسمي كاهنة
جامعة محمد البشير الإبراهيمي، برج بوعريريج
البريد: kasmikahina356@gmail.com

ملخّص : لقد تميزت التجربة الشعرية الجزائرية المعاصرة بتطور كبير، حيث أدرك الشعراء ما يحمله التصوف من معان ودلالات، لذلك عملوا على توظيفه في أشعارهم، وبذلك جاءت قصائدهم تفيض بالرؤى الصوفية التي ترتكز على المحبّة والإيمان، حيث غلب عليها استخدام الرمز الصوفي ومنهم الشاعر عثمان لوصيف الذي اعتمد على اللغة الصوفية باعتبارها لغة رمزية تحمل في طياتها دلالات جديدة مختلفة عن دلالات اللغة العادية المألوفة.

الكلمات المفتاحية : التجربة الصوفية، عثمان لوصيف، الشعر، الرمز، المرأة، الخمرة، الرحلة.

Abstract : The topics of ancient Algerian Sufi poetry are the same as the topics of Sufi poetry in the Arab world. The Algerian Sufi poet, like others, was affected by the spread of Sufism in Algeria; thus, many mystical poets appeared, and perhaps the most famous of them were born in Tlemcen or have lived there. Some of the most famous Sufi poest include: Abu Madian Shuaib - Sheikh Mashayikh, Afif Al-Din Al-Tlemcani, Sidi Lakhdar Bin Khalouf and many others.

Sufi poetry was born to express a deep emotional experience. The study of the topics of ancient Algerian poetry has led to the disclosure of the artistic features represented mainly in the symbolism of the Sufi language, and this was shown in the topics they have dealt with. These revolved mainly around divine love prophetic praise, wine, elegies and nostalgia.

Keywords : Sufism, Othman Loussif, Poetry, symbolism, woman, wine, the journey.

* تاريخ تسلم البحث: 2020/01/16، تاريخ قبول البحث: 2020/04/11.

مقدمة:

لقد تميزت التجربة الشعرية الجزائرية المعاصرة بتطور كبير، وذلك بسبب سعي ومحاولة الشعراء إغناءها بقيم فنية جديدة، هذه القيم التي سعى فيها الشاعر إلى تجاوز الواقع والعالم الحسي وصولا إلى عالم الإشراق والسمو الذي تنطلق منه الروح إلى عالم النقاء والمثل العليا، والتجربة الصوفية كان لها دور كبير في إثراء اللغة ومدّها بمصطلحات ومعاني جديدة.

ومن الشعراء الذين غرفوا من ينبوع الصوفية نجد شاعرنا عثمان لوصيف(ﷺ)، فالمتفحص في أشعاره يجد نفسه أمام زخم إبداعي ثري كونه استمد أشعاره من التراث الصوفي. فالكون الشعري لشاعرنا يفيض بالرؤى الصوفية التي ترتكز على المحبة والإيمان، فدواوينه تحتفل بعدة رموز صوفية، وأنا في دراستي هذه قد ركزت على ثلاثة رموز فقط وهي: المرأة – الخمرة - الرحلة.

1-التصوف في أشعار عثمان لوصيف:

لقد حاول الشعر الجزائري المعاصر مواكبة هذا المدّ الفني، وهذا من خلال قيام الشعراء بتوظيف الرمز في أشعارهم، حيث سعوا إلى التعامل مع الأسطورة والتاريخ والطبيعة تعاملا رمزيا، وبذلك كثرت توظيفات الرمز في المتن الشعري الجزائري، (وقد اتخذ الشعراء الرمز في أشعارهم وسيلة وغطاء للتعبير أوّلا عن ما يسكنهم من خوف وقلق وغضب، وكذلك للتستر خلفه لمعالجة قضايا راهنة، ولكنه كان في معظم الأحيان مغرقا في الغموض، وأصبحت القصيدة بما تحويه من إحالات وهوامش وشروح طابعا مملا، لا تفتح للقارئ مجالا للتخيل، بل تحاول حصره ومحاصرته والحد من ملامسته للمعنى الذي يريده أو يتمناه في القصيدة، ولكن مع الغموض الذي ذكرنا إلاّ أنّ ثقافة بعض الشعراء ووعيهم نتيجة لاستخدام الرمز بأدوات تصويرية ولغوية، وتحاول إقامة إطار تواصل واتصال بين المبدع والمتلقي، وإيجاد عناصر التقاء مشتركة والتبشير بديمومة رسالة الشعر الذي يحقق المتعة الفنية ويخلق الجمال حيث لا جمال بروح متسامية تدمج بين الحس المادي والروحي المثالي بطريقة لا يمجّها ولا يستقبحها الذوق العام)[1].

يعدّ الشاعر عثمان لوصيف شديد الصلة بالأصول الثقافية لأمته العربية والإسلامية، ولذلك اتخذها منبعا لتصويره الشعري، وقد نال القرآن الكريم عنده مكانة كبيرة، ثم التراث الصوفي.

إنّ ظاهرة التعبير بالرمز ظاهرة ملفتة للانتباه في شعر لوصيف، التي تقوم على استخدامه بانفعال عميق. ومن هنا تظهر قدرة الشاعر على تحميل رموزه (بألوان وظلال وإيماءات يمكن التماسها في الحياة الشخصية للشاعر، وفي تجربة احتكاكه بالعالم)[2]. وقد وظف شاعرنا في أشعاره عدة أنماط من الرموز، وسنكتفي هنا بذكر الرمز الصوفي في أشعار عثمان لوصيف.

والرمز الصوفي هو ذلك الرمز الذي استخدمه أقطاب الصوفية في أشعارهم للتعبير عن عوالمهم الخاصة، حتى اشتهر بينهم ثم انتشر وأصبح معروفا لدى المتصوفة باسم المصطلحات الصوفية، وبالتالي فالرمز هو نوع من الإشارات التي يستخدمها الصوفية بكثرة، حيث قال أبو علي الروذباري: (علمنا هذا إشارة فإذا صار عبارة خفي)[3]. فالصوفي يريد أن ينتقل من عالم المادة إلى عالم الروح، حيث يتخلص فيه الإنسان من عالم سيطرة الجسد المادي، لذلك فإن الرمز المادي لم يعد سرا عند المريد (وكيف يكون وقد عناه ونعم بمعاناته وبذوقه ونعم بحلاوته في ذاته ووجوده)[4].

ومنه يتضح لنا بأن الرمز الصوفي كالرمز الأدبي، فهو يشير إلى معاني ما ورائية غير حسية، يتجاوز الواقع الحسي (ويتعداه إلى العالم الروحي الصافي الشفاف الذي يتجرد نهائيا من أدوات المادة وشوائبها، وإن كانت هناك صلة قوية بينهما فإن الملكتين الحسية والجسدية لازمتان في إبداع الرمز و خلقه)[5]. فالصوفية قد أبدعوا في خلق رموزهم التي أضفت بعدا جماليا على نصوصهم الشعرية، كما أنّ توظيف الرمز قد يختلف من شاعر لآخر، لأنه يريد إخراج المتلقي من عالم المادة إلى عالم المثال والروح، كما أنه يهدف إلى إثارة الغموض في نصوصه، وبالتالي فالرمز الصوفي هو (إضاءة للوجود المعتم واندفاع صوب الجوهر)[6].

2- الرمز الصوفي في أشعار عثمان لوصيف:

لقد تغلغل الرمز الصوفي في الشعر الجزائري، ووظفه الشعراء في ثلاثة أشكال هي:

- الحب والعشق الصوفي والذي كان مرتبطا ومتعلقا بالمرأة.
- الخمريات وما فيها من سكر وبوح.
- السفر والغربة.

وسنبدأ أولا برمز المرأة باعتبارها الأكثر استعمالا عند شاعرنا:

1.2- رمز المرأة:

لقد تغنى الشعراء بالمرأة منذ القدم باعتبارها نصف الرجل، وأنّ الحياة لا يمكن أن تقوم بدونها، فقد كانت تمثل شيئا مهما في حياة الرجل وما زالت كذلك، فقد كانت أهم منابع الشعر الخالدة إذ لا يمكن القول بأنه لا يوجد شاعر واحد لم يهم بها ويتعبد في محرابها أبدا.

يعد عثمان لوصيف من الشعراء الذين يستخدمون رمز المرأة بكثرة في أشعارهم، ويتمثل حب المرأة بالنسبة للشاعر الصوفي معبرا أو مسلكا يسلكه نحو الحب الإلهي، ولكي نفهم النص فهما صحيحا وجب تفكيكه، لأن النص الصوفي في سطحيته يدور حول مواضيع معروفة كالغزل العفيف مثلا، لكن الدلالة الحقيقية لهذه النصوص تكون غامضة وغير مفهومة، لأنّ كل هذه الدلالات تنطوي تحت مفردات من المعجم اللغوي وهي (حكر على المتصوفة فقط يتواصلون بها فيما بينهم ولا يفهمها

إلاّ الذي عاش حالاتهم الخاصة)[7]، حيث يقول عثمان لوصيف في ديوانه (جرس لسماوات تحت الماء):

"ولْنَنصَهِر جرحًا لجرح
كِي نَكُونَ قصيدةً عصماءَ
تختلجُ الألوهَة في لَوَاعِجِها"[8]

أو في قوله:

"يَا بحْرُ كنت أنوثةً أخْرى
ومْن سكَنَ الأنوثة مرةً بلغَ الكَمَال"[9]

ومن هنا نجد في أشعار عثمان لوصيف (اتجاها قويا إلى الإهابة بالمرأة وبأحوال العشق الإنساني بوصفها رموزا صوفية ذات طابع غنائي، لوّح الشعراء من خلالها إلى عاطفة الحب الإلهي)[10].

إن حياة كل شخص مبنية على مجموعة من العلاقات التي تضمن التآلف واستمرارية الحياة، ومن هذه العواطف نجد المحبة، ولكن ما يلاحظ عند شاعرنا أنه نقل المحبة كعلاقة وتعامل في الحياة إلى ممارسة في حياته الشعرية أيضا، فالمحبة عند لوصيف تجاوزت حدودها لتصل إلى العشق الذي يعدّ درجة متقدمة من الحب، فهو يصوّر نفسه في عدة مواضع كعاشق ولهان، حيث يقول:

"وأنَا العاشقُ المتصوفُ
عانقتُ كلّ المداراتِ"[11].

وكقوله أيضا:

"أنَا الشَاعِرِ الجوّالُ
الأرملُ..
اليتيمُ..
الصعلوكُ
الصوفي العاشقُ... العرّاف"[12]

فالشاعر يؤكد من خلال قصيدته هذه بأنه شاعر صوفي يعاني من العشق، وفي موضع آخر يحاول التأكيد بأن مرتبة العشق ليست من طموحاته بل يريد الوصول إلى منصب سيّد العشّاق حيث يقول:

"أحْملُ البرقَ والياسمينَ
وأنَا سيدُ الانبياءِ... أنا سَيدُ العَاشِقِين"[13]

فقصائد شاعرنا كلها طافحة بالحب وبالجمال الأنثوي الخارق، الذي يتشكّل في (صور مشربة في حسيتها، بدلالات تلويحية نابعة من تجربة الحب الصوفي المفعم بأحوال وجدانية مشبوبة)[14]،

فهو يركز ويتغنى بالجمال الذي شدّ له، ولعلّ العيون لها سحر كبير في جذب أيّ كان، لذلك كانت أشعاره مشحونة بدلالات مختلفة، حيث يقول:

"عيناكِ...
سماوات قزحية
فيهمَا تعترشُ الأغانِي
وتَتفتّقُ الغوايَات
يداكِ...
صبوتِهَا
خصلاتُك حنانُ الطبيعةِ في أوجِ الطَائشَة
صورةٌ حية لأيامِي الحْيرَى
ونهداكِ الطافرانِ
كوكَبَانِ منْ شَمعٍ معجُون
سُؤالاَنِ لَجوجَان
وفكرتانِ تستهويانِ العشَاق"(15)

وهنا اعتمد الشاعر على الوصف حيث وصف العينين بالسماوات، واليدين بحنان الطبيعة، ثم وصف خصلات الشعر المبعثرة... إذا فالشاعر قد ركز على بعض الأعضاء الموجودة في جسم المرأة والمتمثلة في العيون واليدين والشعر والصدر، فهذه الأعضاء هي ما يميز جسم المرأة عن جسم الرجل وفيها يكمن الجمال والإثارة، لأن العيون تعتبر (أول مثير يجلب اهتمام الشعراء والعشاق، فدورهما إذا هو خلق اليقظة العاطفية)(16)، ولهذا ذكرت أكثر من مرة في دواوينه.

وفي موضع آخر يقول:

"آه.. يا امرأةً يزهرُ الكونُ
في فيضها اللدُنِي
ويخضوْضِلُ اللَونُ
في نارهَا الصافِيَة"(17)

وفي هذا المقطع نجد أن الكون يزهر ويكتسي حالة من الإشراق، وهذا كله من أجل حب امرأة سلبت قلب وعقل الشاعر، فالمرأة في شعر لوصيف (كون يشغل زمانا لا نهاية له، ومكانا لا حدود له؛ المرأة ليست جسدا ميتا بل هي روح متحركة تتجدد وتتشكل باستمرار من خلال الأشياء المحيطة بها)(18). المرأة عند شاعرنا خارقة للعادة، حتى أنها غلبت كل قوانين الجاذبية والأسس المنطقية.

"لَا أحدِّدكُ الآن
لسْت معادَلَة
لست رقما ولا نظرية
أنت فوق الحسابات
فوقَ البراهِين
فوقَ القَوانِين
والأُسُسِ المنطقِيَة"(19)

فالشاعر عثمان لوصيف يجعل من المرأة (مرآة ينعكس عليها الحسن والجمال الإلهيان، وهذا الانعكاس يخلصها من نسبها الناسوتي، ويجعل منها كائنا إلهيا في معناه، وإن كان بشريا في صورته البشرية والفيزيولوجية)(20). والشيء الملاحظ لدى تتبع قصائده هو استعماله المكثف للمعجم الصوفي، وهذا ما تكشف عنه قصيدته (آيات صوفية):

"هابط أرضك المستكنّة في رعشة السهو
أفتحُ في روضةِ الأبديةِ درْبِي
وأدخلُ مملكةَ الله..
أخلعُ نعْلِي
أمشِي على التوتِ والأقحوانِ السَمَاوي
أوغلُ في غبشِ الصلواتِ واهتفُ باسْمِك
أدنُو من العَرْش
ألقاكِ... يا امرأتِي المستحمَّة بالنُور
أطلقُ عصفورةَ النَاي
أقرأُ تعويذَة العِشْق
أرفعُ عن وجهِكِ القُدسِي الحِجَاب
وأسجدُ عنْد التَجَلِي"(21)

فالشاعر قد فتح الباب للدخول في لحظة التجلي كما يفعل الصوفيون، وهذا ليعبر عمّا يختلج في نفسه، وفي هذا المقطع نجده يصف فرحته الكبيرة وهو يجوب مدينة الجلفة، في قوله:

"حينَ أَرَاك
يراودُني شَيءٌ واحِد
أنْ أنْغَمِس
في عينيكِ الصُوفيتَين

لِأعَانقَ أنايَ الآخَر
طُفولتِي التي هربتْ مِني
وفردوسِيَ المفْقُود"[22]

وقد وظّف الشاعر لفظة العيون للدلالة على شدة تأثيرهما فيه، فهذه العيون الجميلة قد أرسلت الشاعر في رحلة مع الزمن، إلى طفولته التي يفتقدها ويتمنى رجوع أيامها، ولذلك يمكننا القول بأن (من مظاهر الخطاب الصوفي في شعر عثمان لوصيف تصاعد الوهج الرؤيوي عند الشاعر، والتطلع إلى لحظات التجلي)[23].

كما نجد توظيف كلمة(صوف) بمختلف اشتقاقاتها حيث استعمل في أشعاره كلمة: التصوف، صوفيتي، الصوفيتين، المتصوف... وهذا للتأكيد على اتجاهه وعاطفته التي رمز إليها بالمرأة، سواء كانت المرأة الحقيقية أو أنها تدل على الوطن (المدينة، كالجلفة أو وهران...)، وفي مقطع آخر يقول:

"أتذكّرُك
في كلِ صلاة
فأنحَنِي.. في خُشُوع
أغمضُ عيني من رهْبة
أسبحُ بحمدِك وأتضَرَّع
إلى عينيكِ اللامتناهِيَتيْن
يا صورةَ الله
في بهوَ المرأة
من ْكلِ نَار
وعلَى كلِ قافيةٍ ضامِرَة
يتوافدُ الحجيجُ أفواجًا
أفواجَا"[24]

فامرأة الشاعر ليست عادية وليست إنسانا فهو يقف في حضرتها والخشوع والرهبة مصاحبان لها، ثم ينتقل إلى ذكر الحج الذي هو أحد أركان الإسلام. إنّ القارئ لهذه الأبيات سيقف حائرا من تضارب المعاني والدلالات، فهل الشاعر يتحدث عن المرأة أو عن المحبة الإلهية، (لم يتمكن الصوفية من إيجاد اللغة المناسبة للتعبير عن حبهم وهيامهم في الذات الإلهية، فاضطروا إلى التغني بها وبالطريقة نفسها التي سلكها شعراء الحب الإنساني، بشقيه العذري والحسي)[25].

وتتبوأ المرأة عند الشاعر مكانا قدسيا وهذا بإضفائه هالة من القداسة عليها، وهذا ما يظهر في التناص الذي قدمه، حيث يقول:

"آهٍ يا امرأةَ المناسِك
والنوافِل
يا وثنًا روحيًا
ويا معبودًا
لا يغفرُ إلاّ لمَنْ جَنّ
بالإغماءِ في مِحرابِه"(26)

فالشاعر قد أعطى للمرأة مرتبة الألوهية، وهذا ما يؤدي به إلى الدخول في حالة من اللاوعي متمثلة في إصابته بالإغماء والجنون. والحب الإلهي في الشعر الصوفي (فرع من فروع الغزل والنسيب، لا يختلف عن الغزل المعروف في المعاني والأفكار، ولكن في التأويل)[27]، فالقارئ لا يصل إلى معنى الأبيات إلاّ من خلال التأويل، لأنّ الشاعر ذو نزعة صوفية ،لهذا لجأ إلى استخدام هذا الحب الإنساني ليكون طريقا يسلكه إلى الحب الإلهي.

وبالتالي نصل إلى أنّ الشاعر استطاع أن يشحن رمز المرأة بعدة دلالات مختلفة حيث إنه ذكر شدة حبه وتعلقه بها، كما قام بذكر بعض أعضاء جسدها خاصة العيون لما لها من سحر وجاذبية في التأثير على الغير، كما قدسها لدرجة الألوهية. تعلق الشاعر لوصيف بالمرأة في رمزيتها الصوفية للذات الإلهية، فقد استطاع (أن يقرّبنا من معنى الصدق والإخلاص لذات الحق في تعاطي الفعل ظاهرا وباطنا في الآن نفسه، حتى يتحقق الوفاء بالعمل لله، وفي هذا تجل للمكاشفة الجمالية الصوفية التي تخترق في لغتها حدود المرئي إلى التعبير بالإشارة عن اللامرئي)[28].

2.2- رمز الخمرة:

نجد حضور الرمز الخمري في النص الصوفي عند الشاعر لوصيف بكل ألفاظه ومضامينه، لكن تختلف معانيه عند الشعر الصوفي، وتتحول الخمرة إلى (موضوع مقدس يطوف به العارفون ويستلهمون منه غير متحرجين من عيب أو دنس)[29].

لقد تفاعل رمز الخمرة مع بنيات الحب والمرأة في تجليات جمالية صوفية، حيث يقول الشاعر:

"الطبيعةَ كلها سَكْرى منْ عشْق
والسماواتُ تتركُ مواقعَها
لتتحدَ بك
في سيمفونيةٍ خالدَة"[30]

وهنا نجد اتحاد رمز الخمرة برمز المرأة (وبما أن الدافع إلى خلق العالم هو الحب، فكذلك الدافع إلى العودة إلى الأصل، لا بدّ أن يكون هو الحب، وبهذا يكون حب المرأة والخمرة والطبيعة هو حب

إلهي)[31]، فالسكر عند الصوفية كان نتيجة لحالة الحب والعشق الإلهي التي وصل إليها المتصوفة والمتجلية في هذه المرأة.

يقول في موضع آخر:

"إلى أينَ يمضِي بنَا السكرُ يَا عِشْق
أينَ حدودُ غوايتنَا
أينَ... أينَ القَرَار؟"[32]

لقد استعمل الشاعر معجما خمريا، ومصطلحات الخمر المتداولة عنده هي نفس الألفاظ التي استعملها الشعراء الذين تغنوا بالخمرة، لكن الاختلاف يكمن في كون الخمر هي الخمرة المادية الحقيقية، لكن عند الصوفية هي الخمرة الروحية التي يعبرون فيها عن فنائهم في التعبد والحب الإلهي (وما في حكمه من علامات كالمدام والخمر الصرف والشّم والذوق والشرب والري والنشوة والسكر والصحو، وآنية الخمر كالكأس والقوارير والأباريق، وما في حكم ذلك... وهي في أغلبها من الألفاظ النواسية التي يتداولها أهل الشرب والتهتك ومعاقرة الخمرة المادية، يأخذها الصوفية علامات لهم جاهزة للدلالة بها على أحوالهم الصوفية العالية وقت الحضور والتجلي)[33].

تتنوع صيغ حضور رمز الخمرة عند شاعرنا، فغالبا ما يربطها برمز المرأة، حيث يقول:

"ثم اعتصَرَتِ العَنَاقِيد
أترعت كأسِي خمرًا
تشفُ صفاءً
تعلمتُ أن أتغَنَى لمجدِ الحيَاة
وأنْ أنْتصِر"[34]

فالخمرة هنا رمز للحب الخالص الذي يعلمنا الطريق الصحيحة التي ينبغي سلوكها في الحياة لبلوغ المجد والانتصار على الهموم والأحزان، فاقتراب الإنسان من كأس الخمرة يعدّ انتصارا على مصاعب الحياة وهمومها، ويعود مردها إلى (الشعور الصوفي بأنّ ثمة نار عطش تشتعل في جوفه، عطش إلى الفناء في حضن الألوهية)[35].

فشاعرنا عثمان لوصيف قد وجد في رمز الخمرة قدرة أسلوبية تعبر عن مكنونات قلبه، لكنه لم يكن ينظر إلى التصوف ككل على أنه ممارسة حياتية، تتمثل في المعاني العرفانية وفي أحوال ومقامات الصوفية، بل كان يهتم فقط بالمعاني والدلالات التي تحملها من ورائها.

3.2- رمز الرحلة:

يعتبر أدب الرحلة من الموضوعات التي أخذت حيزا كبيرا لدى الشعراء العرب، ونفس الشيء بالنسبة للمتصوفة، الذين استعملوا رمز الرحلة كوسيلة للتعبير عن أفكارهم في العشق، ولكن طبعوها

بما يناسب أفكارهم الروحانية، أما شاعرنا لوصيف فقد اتخذ من الرحلة أساسا لتجاوز واقعه المتعب والمليء بالمنغصات، فرمزية الرحلة عنده تظهر في توقه للوصول إلى الحقيقة المطلقة، دون التأثر بجدار الواقع المادي ولا بشهوات الذات الإنسانية، حيث يقول:

"آهٍ.. يا جسدَ الطينِ يا جسدِي
إنْ سلختكَ بالأمسِ عنّي
وغادرْت هذَا الترابَ وهذِي الحُفر
فلكيْ أتبطنَ غامضَ سرّي
وأنحتَ من صاعقِ الرعْد
معنًى لهذَا الوجُود
وأرفعَ بالدَم والنَار
معراجَ كل البَشَر
في قرارِ السماوات
حيثُ النهايَات حيثُ البدايَات)[36]

فالشاعر ينشد السكينة والسلام وهذا من خلال توقه إلى أصله النوراني (ما يريده المتصوفة؛ فإذا نزلت على القلب اطمأنّ بها، وسكنت إليها وخشعت واكتسبت الوقار، والجوارح أنطقت اللسان بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش، واللغو والهجر وكل باطل، وكثيرا ما ينطق صاحب السكينة بكلام لم يكن عن فكرة منه، ولا روية ولا هبة، ويستغربه هو من نفسه، كما يستغربه السامع له، وربما لا يعلم بعد انقضائه بما صدر منه، وأكثر ما يكون هذا عن الحاجة، وصدق الرغبة من السائل، وصدق الرغبة منه هو إلى الله، الإسراع بقلبه إلى بين يديه وحضرته، مع تجرده من الأهواء)[37].

إن رمزية الرحلة في شعر لوصيف تنكشف عن ذات دائمة السفر، وفي حالة قلق دائمة لأنها تعاني إحساسا حادا بالاغتراب، والدليل على ذلك قيام الشاعر بالتقديم لديوانه (نمش وهديل) بقوله : (إلى كل من يحبني وإلى كل من لا يحبني في أي مكان أو زمان، أهدي هذه القصائد حبا وكرامة)[38]، فالتصوف عند عثمان لوصيف عبارة عن ثورة روحية وفكرية هدفها هو تغيير المجتمع، ولتحقيق ذلك لا بد من شيوع المحبة العامة بين الناس.

يقول في قصيدة (آيات صوفية):

"هابط أرضك المستكِنة في رعْشَة السَهْم
أفتحُ في روضَتي الأبديَة دَرْبي
وأَدْخلُ مملكةَ الله

أخلعُ نَعلي
أمشِي على التوتِ والأقوانِ السمَاوِي
في السجودِ أرَاك
فأغمضُ عينَي من نشوةِ الخوف
أغمضُ كيْ أتأملَ وجهك أكثر
يأخذُني سحرُ عينيْك"(39)

هذه القصيدة مليئة بمصطلحات الصوفية (المستكنة، رعشة، روضتي، دربي، مملكة الله، السماوي، أراك، نشوة، الخوف)، بالإضافة إلى بروز ظاهرة التناص من القرآن الكريم (أخلع نعلي)،ويأتي رمز الرؤية (في السجود أراك) رمزا لتلك المعرفة التي يهبها الله للعارف، ولا تتأتى له أثناء النوم فحسب، بل قد تنشط مخيلته في حال الفناء والوجد، (وكما يؤتى النبي الوحي في اليقظة، كذلك يؤتى الصوفي المعرفة في يقظته، عن طريق المعراج أو الإسراء الروحي، حيث تكون رحلة العارف من بدنه وذاته نحو موطن المعرفة والحقيقة وذلك بواسطة طاقة لا تتوفر إلاّ لدى من يمتلكون هذه القدرة وطاقة الخيال (المنفصل) التي يخترق بفضلها الوجود بكل مراتبه وحجبه إلى أن يصل إلى الحقيقة في العماء أو البرزخ)(40)، فالرحلة إذن هي قدر الإنسان، فرضتها عليه طبيعة الحياة، وهي تعني الانتقال من مكان لآخر بدافع محدد، فالشاعر هنا اتخذ من الرحلة وسيلة للوصول إلى المحبوب بقوله (يأخذني سحر عينيك)، وصاحب الرحلة هنا قد مر بمحطات لتنقية النفس وتطهيرها، وهذا لاعتلاء الدرجة القصوى المتمثلة في الوصول إلى المعشوق. وقد أشار الشاعر إلى معاناته وألمه من خلال قوله: (نشوة الخوف) ربما الخوف من فقدان المحبوب، فأساس الألم والمعاناة عند شاعرنا هو الفراق، وهذا ما يدل على حضور ثنائية تتمثل في المحب والمحبوب، وهما يمثلان أساس التجربة الصوفية لدى الشاعر.

وبالتالي يتضح لنا أنّ الرحلة الصوفية والرحلة العادية لهما أوجه تشابه من حيث المقصد أي الترحال والهروب، لكن الرحلة الصوفية ليست رحلة عادية لأنها رحلة نحو الأعلى غرضها تطهير النفس للوصول إلى مقام أعظم.

خاتمة:

وفي الأخير يمكن القول بأنّ الشاعر عثمان لوصيف قد تأثر كثيرا بالتراث الصوفي، حيث شكل مفهوما خاصا للتصوف، أبدى من خلاله أفكاره وعواطفه، فالتصوف عنده لم يكن غاية وإنما كان وسيلة للتصوير والتعبير عن آرائه.

نجده كذلك يربط الرمز الصوفي بمجموعة من الدلالات وقد ركز كثيرا على رمز المرأة في أشعاره، حيث جعل منها رمزا موحيا دالا على الحب الإلهي، كما جعل الخمرة رمزا للوجد الصوفي، ونفس

الشيء بالنسبة لرمز الرحلة التي كانت من أجل الوصول إلى المحبة الإلهية. وبالتالي فقد احتل الرمز حيّزا كبيرا في دواوين الشاعر عثمان لوصيف، كما أنه استطاع أن يخلق لنفسه لغة خاصة به. ومنه فالتصوف قد جلب أنظار الكثير من الشعراء الجزائريين إليه، وهذا بسبب ما تزخر به التجربة الصوفية من طاقات إبداعية، مما أدّى إلى التقاء التصوف بالشعر الجزائري المعاصر في كثير من الأمور التي جمعت بينهما.

ﷺ - عثمان لوصيف: ولد في الخامس من شهر فيفري من سنة 1951، بدائرة طولقة التابعة لولاية بسكرة، بجنوب الصحراء الجزائرية. وقد نشأ وسط عائلة بدوية فقيرة. هو شاعر ينتمي إلى جيل الثمانينات من القرن العشرين، وعثمان لوصيف شاعر مكثر، أصدر في الثمانينات وحدها بضعة دواوين. أصدر أكثر من 18 مجموعة شعرية، وهي: الكتابة بالنار (1982)، شبق الياسمين (1986)، أعراس الملح (1988)، أبجديات، براءة، غرداية، اللؤلؤة، نمش وهديل، الارهاصات (1997)، زنجبيل، قراءة في ديوان الطبيعة، قصائد ظمأى، المتغابي، ولعينيك هذا الفيض (1999)، قالت الوردة (2000).

[1] - قري مجيد: الرمز في شعر عزالدين ميهوبي، رسالة ماجيستير، جامعة الجزائر، 2006، ص: 11.

[2] - راجع عبد الله راجي: القصيدة المغربية المعاصرة، بنية الشهادة والاستشهاد، منشورات عيون، الدار البيضاء، 1987، ص: 264.

[3] - الطوسي أبو نصر السراج: اللمع، تحرير عبد الحليم محمود طه، عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، د. ط، مصر، 1960، ص: 414.

[4] - حجازي محمد عبد الواحد: ظاهرة الغموض في الشعر الحديث، دار الوفاء الدنيا للطباعة، ط 1، الاسكندرية، مصر، 2001، ص: 177.

[5] - المراغي أحمد الصغير: الخطاب الشعري في السبعينيات، (تق) مصطفى رجب، دار العلم والترجمان، ط 1، مصر، 2009، ص: 198.

[6] - هدارة محمد مصطفى: النزعة الصوفية في الشعر العربي الحديث، مجلة فصول، مجلد 1، ع 2، يونيو 1981، ص: 121.

[7] - مسابل السعدي: الرمز الصوفي في شعر ابن عربي، مخطوط، ماجيستير، جامعة باتنة، 2001-2002، ص: 108.

[8] - لوصيف عثمان: جرس لسموات تحت الماء، ص: 64.

[9] - نفسه، ص: 64.

[10] - عاطف جودة نصر: الرمز الشعري عند الصوفية، ص: 165.

[11] - لوصيف عثمان: براءة، ص: 48.

[12] - لوصيف عثمان: قصائد ضمأى، ص: 28.

[13] - لوصيف عثمان: نمش وهديل، ص: 44.

[14] - عاطف جودة نصر: الرمز الشعري عند المتصوفة، ص: 180.

[15] - لوصيف عثمان: ولعينيك هذا الفيض، د. ط، دار هومة، 1999، ص: 20 - 21.

[16] - حميطوش كريمة: تولد الدلالة في ديوان ولعينيك هذا الفيض لعثمان لوصيف، ص: 13.

[17] - لوصيف عثمان: قالت الوردة، ص: 55.

[18] - هيمة عبد الحميد: الخطاب الصوفي وآليات التأويل، قراءة في الشعر المغاربي المعاصر، دار الأمير خالد، قسنطينة، ص: 266.

[19] - لوصيف عثمان: قالت الوردة، ص: 49 - 50.

[20] - بن عمارة محمد: الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، شركة النشر والتوزيع للدارس، ط 1، الدار البيضاء، المغرب، 2001، ص: 87.

[21] - لوصيف عثمان: اللؤلؤة، ص: 20.

[22] - لوصيف عثمان: قصائد ضمأى، ص: 54.

[23] - بن سلامة الربعي وآخرون: موسوعة الشعر الجزائري، ج 1، دار الهدى، ط 1، الجزائر، 2002، ص: 980.

[24] - لوصيف عثمان، ولعينيك هذا الفيض، ص: 34 - 35.

[25] - كندي محمد علي: في لغة القصيدة الصوفية، دار الكتاب الجديد، ط 1، بيروت، لبنان، 2010، ص: 86.

[26] - لوصيف عثمان: ولعينيك هذا الفيض، ص: 36.

[27] - دحماني نبيلة، شعبان صبرينة: الرؤية الصوفية وآثارها في التشكيل الشعري الجزائري الحديث، ص: 18.

[28] - فيدوح عبد القادر: إراءة التأويل ومدارج معنى الشعر، صفحات للدراسات والنشر، ط 1، سورية دمشق، 2009، ص: 250.

[29] - نصر عاطف جودة: الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، ط 3، بيروت، 1983، ص: 374.

[30] - لوصيف عثمان: ولعينيك هذا الفيض، ص: 51.

[31] - بلعلى آمنة: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط، 2009، ص: 76.

[32] - لوصيف عثمان: براءة، ص: 49 - 50.

[33] - جبار مختار: سيميائية الخطاب الشعري عند الصوفية، مجلة تجليات الحداثة، الجزائر، د. م، ص: 49.

[34] - لوصيف عثمان: قالت الوردة، ص: 27.

[35] - نصر عاطف جودة:، الرمز الشعري عند الصوفية، ص: 351.

[36] - لوصيف عثمان:، قالت الوردة، ص: 272.

[37] - ابن القيم الجوزية: منازل السالكين، تحق: رضوان وجامع رضوان، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، ط 1، القاهرة، 2001، ص: 209.

[38] - لوصيف عثمان: نمش وهديل، ص: 03.

[39] - لوصيف عثمان: اللؤلؤة، ص: 20 - 21.

[40] - بلعلى آمنة: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، ص: 192.

***- قائمة المصادر والمراجع:**

1) ابن منظور: لسان العرب، فصل الراء، ج 1، مجلد 2، دار صادر، بيروت، 1995.
2) ابن القيم الجوزية: منازل السالكين، تحق: رضوان وجامع رضوان، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، ط 1، القاهرة، 2001.
3) أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة، ط 6، بيروت، لبنان، 2000.
4) أدونيس: زمن الشعر، دار العودة، ط 3، بيروت، 1983.

5) إحسان عباس: فن الشعر، دار الثقافة، ط 3، بيروت، د. ت.
6) البصير محمد: الرمز الفني للرواية العربية المعاصرة، دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 1993.
7) المراغي أحمد الصغير: الخطاب الشعري في السبعينيات، (ت. ج) مصطفى رجب، دار العلم والترجمان، ط 1، مصر، 2009.
8) الطوسي أبو نصر السراج: اللمع، تحرير عبد الحليم محمود طه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، د. ط، مصر، 1960.
9) بلعلى آمنة: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط، 2009.
10) ابن سلامة الربعي وآخرون: موسوعة الشعر الجزائري، ج 1، دار الهدى، ط 1، الجزائر، 2002.
11) بن عمارة محمد: الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، شركة النشر والتوزيع المدارس، ط 1، الدار البيضاء، 2000.
12) جبار مختار: سيميائية الخطاب الشعري عند الصوفية، مجلة تجليات الحداثة، الجزائر، (د. م).
13) حجازي محمد عبد الواحد: ظاهرة الغموض في الشعر الحديث، دار الوفاء الدنيا للطباعة، الاسكندرية، ط 1، مصر، 2001.
14) حميطوش كريمة: تولد الدلالة في ديوان ولعينيك هذا الفيض لعثمان لوصيف، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، د. ت.
15) خلف جلال عبد الله: الرمز في الشعر العربي، مجلة ديالي، جامعة ديالي، كلية القانون والعلوم السياسية، ع 52، 2011.
16) دحماني نبيلة، شعبان صبرينة: الرؤية الصوفية وآثارها في التشكيل الشعري الجزائري الحديث، مذكرة لنيل شهادة الماستر، جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية، 2011 - 2012.
17) راجع عبد الله: القصيدة المغربية المعاصرة، بنية الشهادة والاستشهاد، ج 1، عيون المقالات، ط 1، الدار البيضاء، المغرب، 1987.
18) عزالدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار الفكر العربي، ط 3، د. ت.
19) كندي محمد علي: في لغة القصيدة الصوفية، دار الكتاب الجديد، ط 1، بيروت، لبنان، 2010.
20) لوصيف عثمان: جرس السماوات تحت الماء، جمعية البيت للثقافة والفنون، 2008.
21) لوصيف عثمان: قصائد ضمأى، دار هومة، الجزائر، 1999.
22) لوصيف عثمان: نمش وهديل، دار هومة، الجزائر، 1979.
23) لوصيف عثمان: ولعينيك هذا الفيض، دار هومة، د. ط، 1999.
24) لوصيف عثمان: قالت الوردة، دار هومة، الجزائر، 2000.
25) لوصيف عثمان: براءة، دار هومة، الجزائر، 1997.
26) لوصيف عثمان: اللؤلؤة، دار هومة، الجزائر، 1997.
27) مسابل السعدي: الرمز الصوفي في شعر ابن عربي، مخطوط، ماجيستير، جامعة باتنة، 2001 - 2002.
28) نصر عاطف: جودة الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، ط 3، بيروت، 1983.
29) عشيري علي زايد: عن بناء القصيدة العربية الحديثة، مكتبة الآداب، ط 5، القاهرة، 2008.

30) غنيمي هلال: الأدب المقارن، دار العودة، ط 3، بيروت. 1983.
31) قري مجيد: الرمز في شعر عزالدين ميهوبي، رسالة ماجيستير، جامعة الجزائر، 2006.
32) فيدوح عبد القادر: إرادة التأويل ومدارج معنى الشعر، صفحات للدراسات والنشر، سورية دمشق، ط 1، 2009.
33) هيمة عبد الحميد، الخطاب الصوفي وآليات التأويل، قراءة في الشعر المغاربي المعاصر، دار الأمير خالد، قسنطينة، 2014.
34) هدارة محمد مصطفى: النزعة الصوفية في الشعر العربي الحديث، مجلة فصول، مجلد 1، ع 4، يونيو 1981.